الالتزام في أدب الشيخ العربي التبسي بين الرسالية والجمالية

عبد اللطيف حني*

الملخص :

يسعى هذا المقال إلى دراسة أدب الشيخ العربي التبسي من خلال تتبع ظاهرة الالتزام التي تواترت في كتاباته ، حيث يكشف المقال عن التزام الشيخ بالقضايا الوطنية والثورية والإصلاحية ونبذ الاستعمار وأداء رسالته العلمية ، وكذلك الوقوف على جمالية طريقته الفنية والأدبية التي تمتاز بفنية وأدبية العبارة وجمالية الأسلوب وكثافة الدلالة وثراء المعجم وعمق الأفكار.

الكلمات المفتاحية : الالتزام ، الوطنية ، الثورية ، الهوية ، الإصلاح ، الجمالية ، الأسلوب

: Abstract

This contribution attempts to study literature Sheikh Arebi Al tebassi by tracking the phenomenon of commitment that there were frequent in his writings, where revealing article about the commitment Sheikh national issues and revolutionary and reformist and renounce colonialism and its message of scientific, as well as stand on aesthetic way of artistic and literary characterized by artistically and literary phrase and aesthetic style and intensity significance and richness of vocabulary and depth of ideas

قدمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جيلا دافع عن الجزائر وحافظ على مقومات شخصيتها الوطنية ، ووقف ضد حملات التغريب والتجنيس والتشويه التي شنها المستعمر الفرنسي قصد سلخ الشعب الجزائري الأبي من ثقافته وتاريخه ودينه وتراثه ، وكان سلاح الجمعية الكلمة والقلم وسبيلها النصح والإرشاد والوعظ ونشر العلم ومحاربة

* كلية الآداب واللغات - جامعة الطارف -

الجهل.

وقد سعت فرنسا بكل الوسائل إلى محاربة اللغة العربية والدين الإسلامي لكنها عجزت أمام جهود أعلام وشيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، الذين زرعوا ونشروا أفكارا إصلاحية وثقافة حضارية أسست لجزائر اليوم والغد ، وأبرزهم الشيخ عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي والشيخ العربي التبسي هذا النبراس الأخير الذي كان مناضلا بخطبه ومقالاته التي لم تلق حظها من الاهتمام بالدراسة أدبيا ونقديا وفكريا.

وعلى هذا الأساس تستمد هذه الدراسة شرعيتها في تسليط الضوء على الآثار الأدبية للشيخ العربي التبسي من خلال تتبع ظاهرة الالتزام ـ التي تواترت في أدبه ـ بالقضايا الوطنية والثورية والإصلاحية في خطبه ومقالاته الصحفية ، وكشف شخصية الشيخ المدافعة عن مقومات الأمة والدعوة إلى نبذ الاستعمار وفضح خططه ودسائسه التدميرية ، كما نوضح مدى تحمل الرجل قضايا وطنه والتزامه بمتابعتها والاستماتة من أجل بلوغ هدفه وغايته المنشودة (الرسالية) ، وكذلك الوقوف على جمالية طريقته الفنية والأدبية التي تمتاز بفنية وأدبية العبارة وجمالية الأسلوب وكثافة الدلالة وثراء المعجم وعمق الأفكار.

إن الآثار الأدبية والصحفية للشيخ العربي التبسي جديرة بالدراسة والبحث والنقد لما تضمنته من قيم وطنية وثورية ، وأحداث تاريخية وموقفه رحمه الله تعالى ضد المستعمر ، ومساندة للشعب الجزائري الشجاع ، وأن هذه الآثار تكشف لنا عن الكثير من المعطيات والأفكار التي ناضل لأجلها الشيخ التبسي ، فقد كرس حياته ووقته من أجل الوعظ والإرشاد وتوجيه الناس من خلال خطبه المنبرية المسجدية ، وأثناء اللقاء مع الجماهير في القرى والمداشر ، مسديا التوجيه ومبديا الآراء وفاصلا في الكثير من القضايا التي كانت السلطات الاستعمارية تضلل بها الشعب الجزائري قصد تدجينه وسلخه عن تاريخه.

وكان الشيخ العربي التبسي فارسا في البيان والكلمة من خلال كتاباته الصحفية التي بينت تجربته الرائدة في الكتابة وتحرير المقالات المعبرة عن موقفه وموقف الشعب الجزائري ، إن هذه الشخصية عظيمة عظم الجهاد الذي خاضه جهاد نشر العلم ومحاربة الجهل

والضلالات التي نشرت إبان الاستعمار الفرنسي ، هذا الرجل الذي ما بخل على الجزائر بجهد أو فكر أو تضحية بل نال الشهادة حبا فيها وفرحا بنصرها وتحريرها من الاستعمار الذي حاول مرارا وتكرارا سلبها وتغريبها فكانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي نشط تحت لوائها الشيخ العربي التبسي بالمرصاد وذلك بجهاد كل شيوخها عبر كامل التراب الوطني ، ومنهم شيخنا الذي كان مدرسة في حياته من خلال التزامه بقضايا وطنه ، فظهرت سمة وخاصية الالتزام في أدبه ، وهذا ما يؤكده الشيخ البشير الإبراهيمي الذي قال فيه : مرب كامل خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر في العلم ، وخرجه القرآن والسيرة النبوية في التدين الصحيح والأخلاق المتينة ، وأعانه ذكاؤه وألمعيته على فهم النفوس وأعانته عزته ونزاهته على التزام الصدق والتصلب في الحق وإن أغضب جميع الناس ، وألزمته وطنيته الصادقة بالذوبان في الأمة والانقطاع لخدمتها بأنفع الأعمال ، وأعانه بيانه ويقينه على نصر الحق بالحجة الناهضة ومقارعة الاستعمار في جميع مظاهره ، فجاءتنا هذه العوامل مجتمعة منه برجل يملأ جوامع الدين ومجامع العلم ومحافل الأدب ومجالس الجمعيات ونوادي السياسة ومكاتب الإدارات ومعاهد التربية(1).

مفهوم الالتزام :

يقصد بالالتزام لغة المداومة حيث جاء في لسان العرب ـ لزِمَ الشيءَ يَلْزَمُه لَزْماً ولُزوماً ولازَمه مُلازَمَةً ولِزاماً والتزَمَه وأَلزمَه إِيَّاه فالتزَمَه ورجل لُزَمَةٌ يَلْزَم الشيء فلا يفارِقه واللِّزامُ الفَيْصل جدّاً ، يلزم الشيء فلا يفارقه واللزام ، الملازمة للشيء والدوام عليه (2) ، كما يعني المكوث عند الخليل بن أحمد الفراهيدي حيث يقول : لزم مكانه فلم يقدر على تحريكه ولزم ذلك الموضع خاصة دون ما سواه (3) ، وبذلك يقصد بالالتزام المداومة والمراوحة لمكان ما أو لقيمة أو موقف معين وهذا ما يقصد به اصطلاحا ، لكن هذا المصطلح والمفهوم ظل مرتبطا بالفكر والأدب والفن ، وبالمشاركة الفاعلة في القضايا الإنسانية المشتركة

(1) أحمد طالب الإبراهيمي (جمع وتقديم) ، آثار البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 1997 ، ج2 ، ص217.
(2) ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، ط3 ، بيروت ، 2004 ، المجلد 13 ، ص 190.
(3) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ، دار الجيل للطباعة والنشر ، بيروت ، 2003.

كالسياسية والاجتماعية والاقتصادية- وهذا باتخاذ موقف تطبعه الصراحة والوضوح والإخلاص والصدق في الآراء ، مع الاستعداد بالتزام المحافظة على هذا الموقف ، وتحمل ما يترتب عليه ، ولهذا فهو لصيق بالعقيدة ، منبثق من شدة الإيمان بها ، صادر في جميع أشكاله وأحواله عن أيديولوجية معينة (1).

كما يحيلنا التعريف الاصطلاحي إلى أن الالتزام لا يتحقق إلا بحرية الاختيار الرأي والموقف المتخذ في الحياة النابع من قناعات الفرد ومن توجهاته الخاصة ، فلا يستقيم الالتزام النابع من مداهنة أو موالاة أو نفاق أو قصر ، إن حرية الرأي تكفل للفكر أو الأديب المسؤولية أمام ضميره ودينه وشعبه الذي يناضل لأجله وكانت مواقفه لصالحه ، يهدف إلى فضح الواقع الملموس ، والجهاد لأجل تغييره ، أو إصلاحه ، وتوجيه الناس بالكلمة المنصفة والعادلة لإدراك طريقهم نحو الخلاص والتغيير الجذري والحرية المنشودة(2).

وقد كان ظهور الواقعية الاشتراكية في النقد الحديث إيذانا ينضج مصطلح الالتزام ، فهي ترى إلى أن أساس الابتكار الفني هو الأديب أو الفنان للحقيقة الموضوعية ، لا الركون إلى الخيالية الذاتية الشخصية ، كما يرتبط نجاح الفن في الواقعية بمدى تصويره ودعمه للحياة الاشتراكية(3).

ولعل تلازم الأدب بالعمل وتسخير الفن لخدمة الرؤى الاشتراكية كان من محاور فلسفة كارل ماركس ، حيث إنه ربط حاجة المجتمع للأدب بحاجته للضروريات الأخرى ، فوظيفة الأدب عنده خلق التوازن بين الإنسان وعالمه الخاص لأنه شكل من أشكال العمل ، الذي هو نشاط خاص بالجنس البشري هدفه جعل الأشياء الخارجة ملائمة للحاجات الإنسانية ، وهو ضرورة طبيعية للحياة البشرية التي تسعى للسيطرة على الطبيعة ، وتحويلها بواسطة العمل نفسه إلى ما يلبي حاجاتها ، ومن وظيفة العمل الأدبي السعي إلى إيجاد التوازن بين الإنسان وبين العالم الذي يعيش

(1) أحمد أبو حاقة ، الالتزام في الشعر والأدب ، دار العلم للملايين ، ط1 ، بيروت ، 1979 ، ص 12 ، 13.
(2) المرجع نفسه ، ص15.
(3) ينظر : بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، دار المريخ للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1984 ، ص16.

فيه ، فكلما ازداد الواقع اقترابا من التوازن المطلوب تناقصت الحاجة إلى الأعمال الأدبية والفنية ، ولكن ما دام هذا التوازن المنشود بين الإنسان وعالمه أمرا مستبعدا حتى في أرقى أشكال المجتمعات ، فإن الأدب سيكون ضرورة في الماضي والحاضر والمستقبل ، ملازما لطبيعة الإنسان وهي الطموح دائما إلى تجاوز نفسه ليصبح أكثر اكتمالا وأعظم مما هو ، ولن يتيسر له ذلك إلا بالخروج من جزئية حياته الفردية إلى حياة كلية يرجوها ويحلم بها بأن نلقى فيها العدل والعقل والمنطق والسعادة (1).

وتطور مفهوم الالتزام إلى النضج أكثر وتبلور مع آراء الوجوديين المهتمين بالأدب والفن إذ إنّ ـ الوجودية ليست مذهبا واحدا محدد المعالم والأبعاد ، إنما هي جملة من المبادئ تشترك في اعتبارها أن موضوع الفلسفة هو تحليل الوجود العيني ووصفه من حيث إنه فعل الحرية تتكون بأن تحقق ذاتها ، وليس لها أي منشإ أو أساس سوى هذا التحقيق للذات(2).

ويبدو أن فكرة الالتزام لقيت الاهتمام الواسع لدى الوجوديين خاصة عند جان بول سارتر ، الذي ذهب إلى أن الالتزام موقف يتبناه الأديب أو الفنان ويذود عنه وينافح من أجل تحقيقه ، انطلاقا من قناعاته الخاصة ، وإيمانه المطلق بقضية شعبه ، أي إقرار مبدإ الحرية في التفكير والفعل والقول ، والاستماتة من أجل الوصول إلى مرحلة التغيير والحصول على الحرية المسلوبة منا ، كما يتخوف سارتر من سلب الحرية والإرادة الفردية ، واستكانة الأدباء إلى الإرادة الجماعية ، وذلك سلب لحريتهم وموقفهم وذوبانهم في الرأي العام.

كما يؤسس سارتر نظرته للالتزام من خلال فلسفته الوجودية التي ترى أن الإنسان مصدر الوجود ، فهو يعاين الطبيعة ويكشف عن جواهرها ويمنحها معانيها التي تليق بها ، فالذات الإنسانية تحقق كل موجود ، ولا قيمة للشيء دونها ، كما يرى أن الفكر ليس مجرد انعكاس للمادة ، وهو مستقل عنها ، يمتلك حرية تامة ، تقف وراء حدود الإيجابية التي تسعى لتغيير الموقف والرأي عن طريق الفكر الواعي والمدرك للقيم ، والإنسان مسؤول عن اختياراته رغم حريته ، فهو من يختار وجوده الحر ، وعليه الالتزام بحريته الاختيار وتحدي مصيره.

(1) أحمد أبو حاقة ، الالتزام في الشعر والأدب ، ص30.
(2) المرجع نفسه ، ص38.

يربط سارتر الحرية بالعمل ، إذ تؤلف معه وحدة وتوافقا ، وكل منهما يحقق الآخر ، فالعمل كفيل ببناء زمن المستقبل ولا يتم ذلك إلا بعد فهم الحاضر والعمل بجد لتغييره وتصييره نحو الأفضل وما يتناسب وطبيعة المجتمع.

ولعل نظرة سارتر للإنسان تتحدد من خلال حريته المطلقة التي يحددها باختياراته ، وعن طريق وعي القيم ، كما أن الفرد لا يمكن له التجرد من العالم الذي يعيش فيه ، فهو مكون من مكوناته ، وجزء هام وفاعل في منظومته ، وينعت سارتر الأديب بالالتزام حين ينقل الالتزام من منطقة الشعور الغريزي إلى منطقة التفكير ، فمهمة الأديب أو الفنان هي الوساطة بين المجتمع وقضاياه بطابع التزامي مؤثر ، كما أنه لا ينظر إليه على أنه إنسان مجرد ، بل كاتب ومبدع مسؤول على اختياراته لنفسه على أساس ما حدده الآخرون ، فالمجتمع يؤثر في الأديب فهو يعيش في صلبه وبين رؤاه وبذلك يقيد وضعه ونظرته(1).

ويؤكد سارتر نظرته للمبدع بقوله : وإنما أسمي الكاتب ملتزما حينما يجتهد في أن يحقق له وعيا أكثر ... أي عندما ينقل لنفسه ولغيره ذلك الالتزام من حيز الشعور الغريزي الفطري إلى حيز التفكير . والكاتب هو الوسيط الأعظم ، وإنما التزامه في وساطته ، غير أنه من الحق أن نحاسبه في إنتاجه على أساس حالته في المجتمع ، وعلينا أن نكون على ذكر من أن حالته لا تنحصر في أنه إنسان وكفى ، بل في أنه على وجه التحديد كاتب أيضا ، فقد يكون يهوديا ، أو تشيكوسلوفاكيا ، أو من أسرة من أسر الفلاحين ، ولكنه كاتب يهودي ، وكاتب تشيكوسلوفاكي ، ومن أرومة ريفية ...ضمنيا حاولت في مقال آخر أن أحدد حال اليهودي لم أجد غير هذه العبارة اليهودي إنسان ينظر إليه الآخرون على أنه يهودي ، فمفروض أن يختار لنفسه على أساس ما يحدده الآخرون له من موقف ، لأن ما بين صفاتنا ما مصدره الوحيد أحكام الآخرين علينا (2).

إن هذه النظرة لا تمنح الفنان أو الأديب مجالا للالتزام ، فقد حدد موقفه ، وقيلت آراؤه ، وسطرت مذاهبه ، تجاه مجتمعه وما يعيشه من

(1) أحمد أبو حاقة ، المرجع السابق ، ص 39.
(2) جان بول سارتر ، ما الأدب ، ترجمة محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1990 ، ص 74 ، 75.

ظروف ، فالصمت يراه البعض التزاما بموقف معين مقنع ومقنن.

بهذا العرض للآراء الفلسفية لنظرية الالتزام وتطورها عند منظريها ، يبقى المصطلح محصورا في إطاره اللغوي وحدوده المعرفية التي تتحدد في تبني موقف واتجاه مقتنع به إلى أبعد الحدود ، ويظهر في الرأي والموقف الذي يتبناه الأديب أو المبدع تجاه ما يحدث حوله من أحداث سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية ، وصياغة هذا الموقف في عمل إبداعي أدبي يمت لواقع الحياة بصفة مباشرة ، قاصدا التغيير والتحويل إلى ما هو أحسن وإلى ما هو جميل ، كما نلمس الالتزام بالقضايا الوطنية والثورية التي تمس الشعوب والمجتمعات المقهورة ، حيث ينبري الأديب ليدافع عنها ويذود عن حماها من مختلف تيارات التغريب والاستلاب ، فنجد الأديب مقتنعا بموقفه رغم أن العوامل السياسية والتاريخية ضده لكنه يسعى بكل ما أوتي من قوة إلى تبليغ صوته ورأيه لمخالفيه ، ويجاهد إلى آخر قطرة من دمائه للحفاظ على رأيه وصون الشعب الذي تحمل مسؤوليته ، وحتى لو لم يُسْمَع في زمانه.

تجليات الالتزام في خطاب الشيخ العربي التبسي :

لا مناص من الإقرار بأن شيوخ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين جاهدوا بالكلمة والعلم ، وخطوا مستقبل الجزائر العلمي عن طريق ما قدموه في فترة الاستعمار ، فكانوا أعلاما بأعمالهم التي أسست لمنظومة فكرية رائدة في الجزائر نحن ننعم بفضلها ، ونقطف ثمارها اليوم وغدا ، وفي كل أعمالهم نجد سمة الوطنية والإصلاحية والثورية بارزة ظاهرة ، كما نلمس ظاهرة الالتزام بقضايا الأمة وحقوق المجتمع وإرادة الشعب الجزائري ، فكانوا يمضون قدما يحدوهم هذا الالتزام ، ويتدثرون بهذا الواجب ، وفي مقامنا هذا سنسلط الضوء على الشيخ العربي التبسي أحد أعلام الجمعية وشهاب لامع من شهبها ، لا يختلف خط تأليفه وطريقة إصلاحه وإرشاده عن شيوخ الجمعية.

ولعلنا نلمس في أدب الشيخ العربي التبسي الالتزام من خلال المواقف المطروحة فيه والقضايا المعالجة والموضوعات التي يناقشها والمستوحاة من أرض الجزائر وواقعها الاستعماري ، وما تشهده من تجاذبات مختلفة طرحتها السياسة الاستعمارية ، وكان الشيخ يطرح أفكاره من خلال الخطب

المنبرية والمقالات التي كان يكتبها باعتباره أحد أعلام الإصلاح في الجمعية وأحد أقلامها ومدّرسيها النشطين ، وقد ظهرت مقالات الشيخ العربي في جريدتين من جرائد الجمعية وهما جريدة النجاح[1] (1920 - 1956) والشهاب (1925-1929/ 1929 - 1939) ، ثم في جريدتي : السنة والبصائر .

في صفحات جرائد الجمعية انبرى الإمام العربي التبسي مدافعا عن مقومات الأمة ومحصنا الشخصية الوطنية من تيارات التغريب ، وداعيا الشعب الجزائري إلى التمسك بمبادئ الدين الحنيف والقيم التاريخية والوطنية والثورية التي من شأنها تعبيد طريق الحرية ، ودحر الاستعمار.

إن المواقف المطروحة في مقالات الشيخ العربي التبسي تعكس التزامه بقضايا دينه ووطنه ، ويمكننا أن نحدد هذه القضايا فيما يلي :

1 . الدعوة إلى الوحدة الوطنية :

يلتزم الإمام العربي بالدعوة إلى القيام بالوحدة الوطنية والالتفاف حولها ويعتبرها من صميم العقيدة الإسلامية التي تدعو من خلال نصوصها الشرعية إلى تماسك المسلمين وتضامنهم وتواشجهم وتعاطفهم والاهتمام بقضاياهم والوحدة في حل نزاعاتهم والاتحاد من أجل ردع الأعداء وطرد المغتصبين ، حيث يقول الشيخ : إن الشعب الذي لا ينتظم تحت مبدإ واحد ، وهذا صحته لا تحتاج إلى بينة ، ولعمري لئن أتبعت عينيك ما مضى من عهد أمتك ، وما يعتورها الآن ، وأنت حدب على أمتك ، تود لها ما يوده كل وطني من أن تقف أمتك بصف نظرائها ، فستعود وقلبك مترع بالحسرات ، وعيناك تسكبان العبرات ما دمت تعطف على الجزائر وأهلها ، وإن قومك على الفطرة الأولى ، لم يتزحزحوا عنها ، ولا تنحوا عما كانوا عليه منذ أحقاب ، ولم يدركوا العالم وأين بات من

(1) النجاح : لعبد الحفيظ بن الهاشمي ، و مامي إسماعيل بقسنطينة ، صدرت في 13 غشت سنة 1920، أسبوعية ، ثم تحولت إلى يومية في سنة 1930، وبد عامين أو ثلاثة أصبحت تصدر ثلاث مرات في الأسبوع ، و امتدت أيام حياتها إلى أن أدركتها نهايتها حوالي سنة 1956 وكانت هذه الجريدة في مطلع إنشائها تعد من الصحف الوطنية ، وقد ساهم في تأسيسها و الكتابة فيها الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ولكنه تخلى عنها وقاطعها ، بعد أن وضعت نفسها في خدمة ركاب السياسة الاستعمارية ، جهارا نهارا ، ولهذا استطاعت أن تعيش أكثر من جميع الصحف و المجلات العربية التي ظهرت في الوطن ، منذ أوائل هذا القرن 37 سنة دون أن تمس بسوء (ينظر : علي مرحوم ، نظرة على تاريخ الصحافة العربية الوطنية الجزائرية ، مجلة الثقافة ، العدد 42 ، ديسمبر ، 1978 ، ص29).

فيه[1].

إن الشيخ يؤكد على اتحاد الأمة وفوائده الذي سيصل بها إلى بر الأمان ، وسبيل النجاح ، وكل شعب متحد ومتكافل فذلك دليل على صحته وقوته والعكس صحيح ، وهذا إشارة من الشيخ إلى وضع الجزائر المأزوم الذي يفرض على الشعب أن يوحد كلمته فتتوحد قوته ويتغلب على القوى الاستعمارية التي استغلت تشتت قواه وتعدد أصواته لكي تنقض عليه ، فالشيخ من خلال مقالته يطرح هذا الهم الملتزم بمحاربته والقضاء على الفرقة ببيان مضارها والدعوة للوحدة وبيانها فضائلها[2].

ويتطرق الشيخ العربي التبسي إلى حال الأمة والطريقة التي تحيا بها ومقارنتها بغيرها من الأمم فيقول : ...ألق بصرك ذات اليمين وذات الشمال في وطنك الجزائر ، سهوله وحزونه ، وحواضره وباديه ، متبينا كيف تجد قومك ؟ وفيم يقطعون الأيام والليالي ؟ وفيم تنفق الأموال ؟ وما هي حالة أمتك الاجتماعية ، وقارن بينها وبين أهل الدنيا ، تجد شعبك من أهل هذا العصر الذي لا عيش فيه إلا بالعلم ونوره ؟ أم من بقايا الأجيال الغابرين الذين لم يوح إليهم [3] ، إن الشيخ يستنهض زمام أمته وذلك بطريقة المقارنة بالأمم الأخرى التي اتخذت من العلم سلاحا وطريقا لإنارة دربها وحريتها ، ففازت بها وعاشت في كنفها ، ويؤكد الشيخ هنا على قيمة وأهمية العلم في نهضة الشعوب وتطورها ، كما يبين حال أمته التي تأخرت عن ركب الأمم بسبب جهلها الذي أورثه الاستعمار ويتجلى هذا من خلال تساؤلاته عن واقعها المحزن ، فالشيخ يحدوه هذا الالتزام بالشعور بمسؤوليته تجاه إيقاظ شعبه وتبصيره بحقيقة العلم ودوره في محاربة الاستعمار الذي اتخذ سياسة التجهيل شرعة في الجزائر حتى يحكم قبضته على شبابها ويحصرهم في سياج الجهالة والتدجين فلا يطالبوا بالحرية والاستقلال.

ويشدد الشيخ على قيمة الوحدة الوطنية ، إذ نجده يلتزم في مقالاته

(1) العربي التبسي ، هذه جزائركم تحتضر أيها الجزائريون فأنقذوها ـ مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ـ جمع وتعليق أحمد شرفي الرفاعي ، دار الشهاب ، ط1 ، باتنة ، 1984 ، ص 43.

(2) صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1984 ، ص 233.

(3) المرجع نفسه ، ص 43.

وخطبه بالإصرار على كلمة أمتنا ، الأمة الجزائرية ، الشعب الجزائري ، الأمة الحبيبة ، وغيرها من التعابير التي توحي باقتناع الشيخ بكيان أمته وضرورة وجودها ، وفي حقوقها المشروعة التي اغتصبت من المستعمر ، وأولها أن تحيا في عز وحرية وسلام ، وأن تنعم بخيرات وطنها الحبيب الجزائر ، حيث يقول شيخنا : ـ فأمتنا لم تشعر أن الحياة في عصرنا ليست كالتي كانت قبل أعوام ، وأن ما ينفع إذ ذاك أصبح ضررا مجسما ، فتمد الأمة بها في ازدهار جماعتها إلى خير ما ثبتت التجارب البشرية نفعه ، وأماتت الأمة به ما يعيد إلى الأيام شبابها ، وتأتي مرافق الحياة من كل أوب ووجهة ، وبأي سبب يدعو إليه منادي الدين ، حتى يؤدي كل فرد من الأمة ما خلق له وما ينبغي له ، وما ينبغي أن يكون عليه ، مخلصا في عمله ، وتنبذ تلك الضلالات التي ملأت الأدمغة ، وعلقت بالعقول ، وفرخت في الصدور ، والبدع التي زرعها في الأمة نفر نحلوا لأنفسهم زعامة الدين قبل أن يدروا ما الدين ؟ وما يدعو إليه ؟ وما يحكم به على هذه الزعامة ؟ فرموا بأمتهم في أسوإ عاقبة ، وأتعس مغبة[1].

فالشيخ التبسي في مقالته يدعو إلى فهم الدين الإسلامي الحنيف والتبصر في شريعته التي تدعو إلى نبذ الخرافات والبدع التي نشر أعداء الإسلام وعلى رأسهم الاستعمار وأذنابه ، فأغرقوا الأمة الجزائرية في يم من الضلالات وأدخلوها في ليل مكفهر دامس ، فحجبت البصائر قبل الأبصار ، وتجمدت الضمائر ، وخنعت إلى الواقع ورضيت بحالها ، فالشيخ يوضح موقفه من الطرقية ، حيث يحذر من أولئك الدجالين المحتالين المدعين فهم الدين وهم عنه بعيدون كل البعد ، غرضهم تشتيت الأمة وتفرقت جهودها ودوام الاستعمار على أرض الجزائر وللأسف هم يزجون بأمتهم إلى الهلاك دون علم ، إن الشيخ ملتزم بالدفاع عن مقومات الأمة وإنارة العقول بوحي القرآن والسنة وإشاعة العلم السلاح الوحيد الكفيل بثورة الشعب ، فهو يفضح الخطط الاستعمارية والدسائس التدميرية ، موقف واحد لا يتبدل ومؤمن برسالته النبيلة ، هي نشر العلم ومحاربة الاستعمار بالعلم[2].

(1) صالح خرفي ، المرجع السابق ، ص 44 ، 45.
(2) ينظر : سلمى الخضراء الجيوسي ، أبعاد الزمان والمكان عند ألشابي ـ دراسات عن الشابي ـ الدار العربية للكتاب ، ط2 ، بيروت ، 1989 ، ص 214.

2. الالتزام برعاية وتعليم اللغة العربية :

من صور التزام الشيخ العربي التبسي بمواقفه ضد الاستعمار ونصرة أمته ، والنهوض بها إلى بر الأمان ، حثه الجزائريين في خطبه ومقالاته على رعاية اللغة العربية ، فهي من مقومات الشخصية الوطنية لصلاتها الوثيقة بالدين الإسلامي ، قدسيتها من قدسيته ، وقد فضلها وشرفها المولى عز وجل على كثير من اللغات ، كما خص الأمة العربية بهذا الفضل دون سائر الأمم ، ففي هذا التكريم كيف يؤول حال العربية في الجزائر إلى الفساد والإهمال ؟ فالشيخ يطرح هذه التساؤلات محددا واقع العربية وحالها في الجزائر ، فيقول :

ولترد إلى اللغة العربية شبابها ، وتحي ذكراها بكل الطرق والدرائع ، وليفهم الشعب العربي الإسلامي الذي تحولت لغته إلى رطانة في منطقه ، وخلط في مفرداته ، حتى أصبح لسانه مزيجا .أن لا دين ، ولا قومية ، ولا أمة ، ولا أي مقوم مميز للأمة إذا هي مضت فيما هي عليه من الجهل بلغتها ، والعزلة عن تاريخها ، ورضيت لنفسها أن تكون في حجاب بينها وبين أدب ، ومفاخر أسلافها ، تلكم المفاخر التي باتت دارسة رسوم ...أتنتمون إلى العربية ولا تلجون لها بابا ، ولا يأوي إلى مجالس مشايخكم نشؤكم فيروي عنهم ما خلده لكم أسلافكم من أنيق اللفظ ورائع المعنى؟(1).

لعل الشيخ العربي يظهر موقفه من حفظ وتعليم العربية في الجزائر من خلال وصف واقعها الخطير والمستوى الضعيف في تحصيلها ، ويعود ذلك إلى السياسة الاستعمارية التي تمنع تعليمهما ، وتحارب شيوخها ومعلميها ، وعلى رأسهم شيوخ جمعية العلماء المسلمين ، مما أثر سوءا على اكتساب العربية التي هي لغة الدين والأمة ، فتحولت لغته إلى خليط مشوه ، ويحذر الشيخ من فقدان هذا المقوم الأساس الذي تعتمد عليه المقومات الأخرى ، مما يتولد عنه شيوع الجهل في صفوف الأمة وشبابها ، وتصاب بالضعف والهوان والانكسار ، وتعزل عن ماضيها وتاريخها ودينها ، وتعزل نفسها في ظلمات لا نهاية منها ، ويشدد الشيخ في خطابه بالاستفهام عن انتماء الشباب الجزائري للعربية لكنه لا يتعلم مبادئها وأصولها ولا يجلس إلى

(1) سلمى الخضراء الجيوسي ، المرجع السابق ، ص 44 ، 45.

شيوخها ، ولا يسعى إلى دورها ومدارسها ، ولا يقبل عليها لكي يأخذ عن معلميها علومها ويتفقه فيها.

ويبدو أن الشيخ يجيب عن استفهامه فيما يأتي من المقالة ليبين قيمة العلم والتعليم والتمسك بالقيم يقول :

هيهات أن تصح تلك الأماني الضائعة ، ألا بارك الله فيكم اعتبروا بغيركم ، وقلدوا سواكم من الأمم والشعوب والقبائل الذين جهدوا أنفسهم ، وركبوا أخطارا ، وحملوا مشاقا وتكاليف باهضة ، وذهبوا كل مذهب لنشر لغتهم خارج أوطانهم ، وتحبيب غيرهم فيها ، فأنفقوا الأموال ، وأشادوا بمفاخرها ، وبنوالها من المفاخر والفضائل صروحا عالية ، وليست حاجتهم إلى لغتهم ببالغة حاجتكم إلى لغتكم (1).

يُظهر الإمام العربي غيرته الصارخة على العربية وتعلّمها ، ويزجر أولئك المتساهلين الزاهدين في دراسة علومها والتثقف بها ، ويدعوهم إلى تقليد الأمم التي ركبت الأخطار وسخرت كل جهد ، بل قدمت التضحيات الجسام على مر العصور والأجيال من أجل الاعتناء بلغتها وتعليمها ونشرها خارج أوطانها ، فاكتسبت صفة العالمية وعاشت خالدة ، فالشيخ أصيل في دعوته ملتزم بقضايا الأمة ، كما يسعى لتوجيه الشباب الجزائري لتعلم لغته والحفاظ عليها.

من خلال المقولة السابقة يبدو الإمام العربي التبسي متفاعلا مع وطنه يتابع قضاياه ويبدي مواقفه دون خوف أو تردد مما يكشف لنا إيمانه العميق والتزامه بها مهما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال ، حيث يتحمل مسؤوليتها أمام العالم أجمع بشجاعة وإقدام ، لأنه هدفه النهوض بأمته وتصحيح مسارها وفكرها من الضلالات ، وسد الطريق في وجه دعاة الطرقية وأذناب الاستدمار للوصول إلى عقل شعبه وقلبه وضميره ، ومن خطابه يتجلى تمسكه بمواقفه التي عاش واستشهد لأجلها رحمه الله تعالى.

ويتجلى التزامه من خلال بنية مقالاته التي تسلط الضوء على الظاهرة بالتحليل والتفسير ، وإيراد الحجج والبراهين والأمثلة الواقعية مما تشهده وتعيشه الأمة ، وهذا يكشف القدرة الفنية والتعبيرية

(1) المرجع نفسه ، الصفحة نفسها.

والأسلوبية للشيخ ، ونلمس طول نفسه في الكتابة مما يوحي لنا بتمكن عميق من مقاليد العربية وتحكم واضح وماهر في ناصيتها ، والمتأمل في مقالات الإمام التبسي يستنتج أنه يدعو إلى الحفاظ عن مقومات الشعب الجزائري بواسطة اللغة الإصلاحية ، من خلال موقفه من السياسة الاستعمارية الرامية إلى التجهيل وأسر الشباب في غياهب الظلام الذي يمكنه من ممارسة أطماعه واستغلاله له.

3. الوعي بالواقع بالسياسي :

إن المتمعن في مقالات الشيخ العربي التبسي يدرك أنه يتمتع بحس سياسي ووعي إيديولوجي ونزعة واقعية ، مما يكشف التزامه بقضايا وطنه قولا وعملا ، فكان يتابع الأحداث السياسية والتطورات الاجتماعية الحاصلة في مجتمعه ، بل كان يبدي موقفه منها ولا يمر عليها مرور الكرام ، مظهرا رأيه فيها دون هاجس أو خوف أوخنوع ، فالشيخ لطالما كان المنبه لشعبه من جميع الدسائس والمكائد التي حاكها الاستعمار في سراديبه ، ويزينها بمختلف المساحيق والألوان الخادعة حتى يواري خبثها ودنسها ووحشيتها ويرضي بها الشعب لأنه لا يرى إلا الوجه لكن ما خفي كان أعظم[1] ، فالإمام يكشف هذه الخفايا ويظهرها ويحذر من مغبة الوقوع فيها ، ومن القضايا السياسية التي ناقشها الشيخ قضية فصل الدين عن الدولة ، حيث تحدث عنها في ست مقالات تحمل القضية نفسها وهي:فصل الحكومة الجزائرية عن المساجد[2] ، تقرير السيد مصباح1[3] ، تقرير السيد مصباح2[4] ، فصل الدين عن الدولة قضية ولا قاضي لها[5] ، فصل الدين عن الدولة منافي لوصلها بها[6] ، فصل الدين عن الدولة[7].

لعل هذه المقالات تعكس الوعي السياسي الذي تمتع به الإمام ، ومدى الحرب الضروس التي خاضها ضد الحكومة الفرنسية التي أبت

(1) عبد الكريم بوصفصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى1945 - 1931 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1996 ، ص 45.
(2) المرجع نفسه ، ص 76 .
(3) المرجع نفسه ، ص 78 .
(4) المرجع نفسه ، ص 82 .
(5) المرجع نفسه ، ص 88 .
(6) المرجع نفسه ، ص 92 .
(7) المرجع نفسه ، ص 96 .

أن تستمع لدعواه ، وبقيت مصممة على قوانينها الخاصة غير مراعية لرأي الشعب الجزائري وعلمائه ، وغير مبالية بمرجعيته الدينية والفكرية والتاريخية ، لم تتوقف عند هذا الحد بل راحت تمنع الجزائريين من التعليم ومن ممارسة حقوقهم في العبادة ، فمنعتهم من المساجد وهدمتها وأحرقت الكتاتيب ودور التعليم ومقرات جمعية العلماء ، واعتقلت شيوخها ومعلميها ، يقول الشيخ في ذلك :

ولكن الحكومة أبت أن تذعن لذاك القرار ، وبقيت مصممة على قوانينها الظالمة ، في منع المسلمين من التعليم بمساجدهم ، فكيف نصدقها الآن ، مع تصميمها على قوانينها القديمة بأنها تريد الفصل ، وأن لها لجنة بالمجلس الجزائري تضع مشروعا للفصل ، وأنه يوم يتم ذلك المشروع يعلن الفصل ؟(1).

يبدو أن الشيخ التبسي يعيش مع شعبه وأمته ظروفها الاجتماعية والسياسية ، وعلى درجة ناضجة من الوعي ، من خلال التزامه المتقد بكل ما يمس الأمة من قريب أو بعيد خاصة ما تعلق بالدين والوطن ، فهو مدرك للواقع الاجتماعي والسياسي لهما ، متمثلا نظرة الأدباء الملتزمين ، إذ الالتزام في نظرهم ليس توجيها أو ضغطا خارجيا ، بل نوع من النضج والشعور بالمسؤولية ، فالأديب الملتزم هو الذي يستوعب الواقع بكل تناقضاته ويناقش القضايا الكبرى ويكون لسان حال أمته(2).

يدرك الشيخ قيمة الوعي بالواقع السياسي الذي يرمي إلى طمس الإسلام وفصل الشعب عن دينه ، كما يدرك أن على الشعب أن يعي هذه القضايا ، وهذا من واجبه وهو ملتزم به ، ومن ثم يتفطن إلى ماهية الخطاب السياسي الاستعماري ـ فيتفطن لأبعاده وخططه الرامية إلى فرنسة الشعب لغة وتاريخا ودينا ، فالإمام العربي يعبر عن ذاته المتمسكة بتعاليم الدين(3) ، ويعبر عن خط ومنهج جمعية العلماء التي تسعى جهدها لتأصيل العلم والدين في الأمة الجزائرية ، وهذا من صميم التزامه ـ فالهدف من التزام الأديب ليس هو التعبير عن أحداث المجتمع

(1) العربي التبسي ، فصل الحكومة الجزائرية عن المساجد ، ص 77.
(2) محمد مصايف ، النقد العربي الحديث في المغرب العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط2 ، الجزائر ، 1984 ، ص 238.
(3) محمد علي دبوز ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1974 ، ج1 ، ص 36.

ومشاكله فحسب ، وهو ما تفعله الواقعية النقدية ، بل هو تشخيص ما يضطرب في نفسية الجماهير ، وتحديد الخط الذي تسير عليه هذه الجماهير نحو مستقبل أفضل ...والأديب لا يستطيع أن يقوم بهذا الدور الأساسي في التعبير عن الحركة التاريخية لحياة الجماعة ، إلا إذا إعتبر نفسه عضوا فاعلا في هذه الجماعة(1).

لعل عمل الأديب يكسب الأهمية والنضج والكمال عندما ينبع من صميم معاناة الشعوب ، ويعبر عن آمالها وآلامها التي تعايشها كل يوم ، إنه الأدب الذي يلخص الحياة الاجتماعية والسياسية للأمم ، إنه الأدب الذي يتلون بألوانها ويزل إلى مغارتها ويعبر عن طبقاتها الكادحة ، التي تشقى كل لحظة وبرهة للحصول على الحرية والعيش الرغيد ، فالأدب بخطابه هو المترجم عما عجزت عنه الألسنة وسكتت عنه الأفواه ، إنه الموجه لشعبه نحو الاستقلال والتطور ، يبن الجميل ويفضح القبيح ، ويكشف الداء ويقترح الدواء (2).

ويبدو أن الإخلاص للوطن والوفاء للأمة ، بتتبع قضاياه والحزن على آلامها والفرح لحريته هو من صميم الالتزام الذي طبع حياة شيخنا الإمام العربي التبسي ، وهذا ما نلمسه في مقال عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، حيث يقول فيه إن جمعيتكم هذه قد وجدت لخدمة الإسلام وبث علومه ، ورد الشبهة عنه ، ونشر فضائله ، ودعوة الناس إلى هدي هذه الملة ، وهذه الخدمة ليست بالأمر التافه ، والعمل الضئيل الذي يمكن أن يعمل في الليل المظلم ، وغفلة الناس ، ولكنه أمر هو في وضوحه وانتشاره وعمومه كاليوم المشمس لا تخفى أضواؤه ، ولا تخص أشعته جهة دون جهة.

وإذا كان أمر الإسلام الذي وجدت جمعيتكم لخدمته كما وصفنا ، فإننا نصدق في دعوانا أن جمعيتنا خدمت الإسلام وعلومه وآدابه وأخلاقه ، وربت المسلمين على ما يأمر به الدين ، ما دمنا لم نقم الشواهد التي تبلغ الكواكب ضياء واستبانة بأننا قمنا بواجبنا (3) .

فالشيخ يتوجه بخطابه هذا لأعضاء جمعية العلماء المسلمين ،

(1) المرجع نفسه ، ص 239 ، 240.
(2) ينظر : محمد علي دبوز ، المرجع السابق ، ص 241.
(3) العربي التبسي ، جمعية العلماء المسلمين وواجب الوعظ والإرشاد ـ مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، ج2 ، ص 22.

مباركا عملهم ومثمنا جهودهم ، ومادحا أفعالهم ، ومشيدا بجهادهم في سبيل الارتقاء بالشعب ، وحمايته ضد حملات التدجين والتغريب ، وفي الآن نفسه يحثهم على الاجتهاد في النصح والتوجيه والإرشاد للشباب الجزائري ، فالشيخ ملتزم بهذه الفكرة ومقتنع بها وما يدل على ذلك جهاده في أطرها والسعي لتحقيقها من خلال انخراطه في جمعية العلماء ، فهو يتحمل مسؤولية أمته ، ويعيش همومها وآلامها فيسخر قلمه وصوته لينبهها ، ويدعوها للثورة على وضعها المأزوم ، طبقا لبرنامج ومنهج جمعية العلماء المسلمين التي سعت منذ تأسيسها إلى خدمة الإسلام والعربية والحفاظ على ثوابت الأمة ، والالتزام بذلك عند جميع أعضائها ومنهم شيخنا العربي التبسي الذي يقول :

ـ فإننا نصدق دعوانا أن جمعيتنا خدمت الإسلام وعلومه وآدابه وأخلاقه ، وربت المسلمين على ما يأمر به الدين[1].

ويتجلى الوعي السياسي عند الشيخ عندما يرفض تبعيته لفرنسا التي تعاملت مع الشعب الجزائري بشراسة دون رحمة في العديد من القضايا والأحداث ، حيث يصرخ الشيخ في وجهها بشجاعة والتزام يقول :

ـ إننا من أتباع محمد لا من أتباع الحكومة التي ترتزق من هذه الجرائم ، وإن أوائلنا لم يتركوا المدرسة الإنسانية مجردة من المدد ، بل كانت وما تزال عينة في جميع بلاد الله ، إلا في شعب تحتله فرنسا ، وقد انقلبت فرنسا العادلة إلى وحش في معاملة الشعب الجزائري ، ونحن نقول لفرنسا الميزة التي لم نعرف منها إلا الشر .كوني عاقلة معنا ، فإننا لم نستطع أن نفسر احترامك للإسلام [2] ، ويقول في موضع آخر :

ـ فعلت فرنسا الاستعمارية كل هذا بالأوقاف الإسلامية وبأهلها وفي الوقت نفسه يقول ساستها إننا أصحاب المبادئ التي حررت الإنسانية واعترفت بحقوق الشعوب والأمم وفصلت سلطانها على الأديان. هل فرنسا صاحبة هذه المقالات هي فرنسا الموجودة في الجزائر؟ المعذبة للإنسانية ؟ الجواب على هذا السؤال عند الفرنسيين الذين يريدون لفرنسا أن تكون دولة

(1) المرجع نفسه ، ص 22.
(2) العربي التبسي ، افتتاح دروس المعهد الباديسي ـ مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ـ ج1 ، ص 227.

من الدول التي تشارك في الديمقراطية التي تحترم الإنسان ودينه وحقوقه. وأفعالها في الجزائر غير ذلك(1).

لعل عكوف الإمام العربي التبسي على الإبداع في فني المقالة الصحفية والخطبة هو التزام منه واقتناع بفعالية هذين الفنيين الأدبين في المجتمع ومدى تأثيرهما المباشر في الأمة ، كما أنها أكثر وصولا إلى مختلف فئات المجتمع ، فتصل الأفكار واضحة جلية ، وتؤثر في متلقيها ، والمقالة هي وليدة كل يوم ، تتفاعل مع أحداث يومها وعصرها وكذلك هي الخطبة إلقاء مباشر على المتلقي حيث تعالج قضاياه اليومية وما يتعلق بواقع الاجتماعي والسياسي .

4 . الدعوة إلى العمل الإصلاحي :

أيقن الشيخ العربي التبسي أن حال الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها ، وذلك بالرجوع إلى مبادئ الدين الإسلامي والعمل بأحكامه ، وهذا يقتضي تفعيل الفعل الإصلاحي والتوجيهي والإرشاد ، بتتبع مواطن الداء وتطبيبها بالدواء النافع ، وهذا ما كان يلح عليه الشيخ ويقوم به ، فقد شهد أصحابه ومن عرفوه بحركته الإصلاحية الدائمة بين قرى ومداشر الوطن ينصح ويوجه ويعلم ويربي ، أسوة بالنبي ﷺ ، وهذا ما شملته مقالاته وخطبه التي تلونت بالطابع الإصلاحي ، فقد رأى حاجة الأمة لهذا العمل النافع ، وتعطشها له لما نشره المستعمر من خرافات وبدع تحتاج إلى تصحيح ومحي من المجتمع ، ويؤكد ذلك في مقالته المعنونة بـ(أيها النوم ويحكم هبوا) حيث يقول فيها : هؤلاء أمم الغرب ، ما غادرت مرفقا من مرافق حياتها إلا اتخذت له ما تبلغه المواهب البشرية ، كل يكد نفسه على ما تقتضيه طبيعة التطور ، فمن أحزاب ضاقت عنها النوادي تعمل ليل نهار على حساب استعدادها ونزعتها بما أنست فيه صالحها لقومها ، وقد اجتروا على أيديها المنافع العظام ، والمرافق الجسام ما أكسبهم عظمة ومنعة ورقيا فأخروا به كل ناهض ، فما قصروا عن غاية ، ولا تنكبوا عن خيبة ، وما قطعوا سواد ليل أو بياض يوم في غير عمل

(1) العربي التبسي ، بيان عن إصدار الحكومة الفرنسية على تولي اغتصاب المساجد و الأوقاف و افتكاكها لحق المسلمين لإقامة الشعائر الدينية في مساجدهم ـ مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ـ ج1 ، ص 106.

صريح يقوم لأمتهم ، شعارهم :نحن لأممنا وفي سبيلها ما نلاقي[1].

ينبه الشيخ الأمة الجزائرية إلى وجوب العمل على النهضة العلمية والتطور والتسابق نحو العلم والحضارة ، مثلما تفعل الأمم الغربية التي جندت قدراتها لأجل تطوير نفسها والارتقاء بشعوبها ، وقد اتحدت كل القوى والجمعيات والأحزاب لأجل غاية واحدة هي صلاح الأمة والوطن ، فالشيخ التبسي يعبر عن التزامه بوطنه من خلال تقديم النصح والتوجيه لأبناء وطنه الجزائر ، ويؤكد ذلك بحديثه عن الهيئات الإصلاحية فيقول :

=ومن هيئات إصلاحية ودينية ، ما قنعت بالعمل بين أهل جلدتها ، وفي محيط شعوبها ، بل انجدوا او اغوروا الشيء تخيلوا فيه سعادة أمم مدائنهم ، فخرجوا عن حظوظهم ، وعافوا الراحة ، واستلذوا التروح عن الأوطان ومفارقة النعيم الذي شبوا عليه ، وسخت نفوسهم بالخروج عن أموالهم بطيب نفس ، وانشراح صدر ، ونزلوا عن كل عزيز وراء ما إليه راغبون ، كلمتهم واحدة ، وصفوفهم متراصة ، وغاياتهم منفردة ، موقنين بأن ليس لدهر الطالبين فناء+ [2].

ويفضح الشيخ المؤسسات والجمعيات التبشيرية التنصيرية التي تمارس أعمالها في الأوطان العربية وفي الجزائر متوارية وراء الاستعمار الذي من أهدافه التبشير وإبعاد الأمة عن دينها ولغتها وعن تاريخها ليسهل النيل منها ، يسدي الشيخ النصح والإرشاد إلى ضرورة الاحتراس منهم وعلينا نحن أيضا أن نبلغ ديننا ونفخر بلغتنا بتعلمها وممارستها ، حيث يقول في مقالته :

=وعلى القارئ أن يلقي نظرة على جمعيات التبشير التي يرأسها الدكتور ـ أو زومير ـ فإن هذه العصابة أوقفت على نشر الديانة المسيحية كل ما أعطوه من قوة ، وما وهبوا من حيل ، وقد كان الفشل يظلهم ، والخيبة تسبقهم ، على خطوة المساعي التي يبذلونها وراء نفرتهم إلى كل قطر من الأقطار ، سواء في آسيا أو في أفريقيا ، فما قنطوا وما فشلوا ولا حملوا أنفسهم على تكاليف وأوصاب لا تقل عن الأسر والأغلال

(1) العربي التبسي ، أيها النوم ويحكم هبوا مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ـ ج2 ، 47.

(2) المرجع نفسه ، ص 47.

، فتقوم المرأة الأمريكية من البرازيل ، أو الانكليزية من إحدى جزر بريطانية ، قاصدة أمة لا تعرف لها لغة ، ولا عادة ، ولا تقاليد ، وهابطة أرضا لم تألف لها جوا ولا غذاء تنشد حاجة وترود أمنية ، تلك قرة عينها ، ونداء حياتها ، كأنما خلقت لتعمل بذلك المبدإ ، وتسير على تلك السنة على ضعف طبيعة المرأة.

وسيان عندي لطبيعة المثل أكانوا فيما قطعوا فيه الأعمار وعلى ظل من الصواب ما أبعده عنهم أم كانوا كمن يمشي مكبا على وجهه وسوف يتردى ، وإنما نبغضهم على صحة العزيمة ، وشدة التمسك بما تهيأ لهم أنه الحق ، فكأنما أصل هذه الأمة مسك وأصل أمتنا طين!

فمن أين للجزائر المسكينة بما تباهي به الأمم؟ وتفاخر به الشعوب؟ وتبدل بفضله النظر ، ويمسح عنها الفضيحة ؟.

أتعتز بعلمائها الذي ظلوا في بيوتهم ، وظنوا الإصلاح الحديث رجوعا إلى الكفر بعد الإسلام ؟ زاعمين بأفواههم أن لديهم من الأعذار ما يجعلهم غير محاسبين ولا مؤاخذين على ما فرطوا فيه من الأمانة التي حملوا أداءها؟ والدين الذي ألزموا ببلاغه والدأب عليه؟!! (1).

ويؤكد شيخنا ضرورة النصح والإرشاد كوسيلة لتبليغ الدين وتوجيه الأمة لما فيها من الخير والفلاح فيقول : إن حاجة المسلم والإسلام إلى الإرشاد لحاجة تتوقف عليها حياتهما ذلك أن هذه الأمة المسلمة الجزائرية تقوم ديانتها عقائد وأعمالا وأخلاقا وآدابا على أصول وفروع علمية لا يمكن للمسلم أن يأتي بها كفاية له معدودة من دينه ، إلا إذا أخذها عن علم وبصيرة وفقه ونظر ، لأن هذا الدين قد وضع في أول ما وضع في أصوله :العلم قبل العمل(2).

يؤكد الشيخ على ضرورة توحيد الجهود والمثابرة من أجل صلاح حال الأمة الجزائرية ، والسير بها إلى التطور والحضارة والتخلص من المستعمر ومكائده والقضاء على الجهل الذي استبد بأبناء الشعب ، فالشيخ يدعو إلى العمل العلمي والنهوض بالذات بواسطة الإمكانيات الخاصة ، مقارنا حال أمته بالأمم الغربية التي تحملت على عاتقها

(1) العربي التبسي ، أيها النوم ويحكم هبوا ، المرجع السابق ، ص 47 ، 50.
(2) العربي التبسي ، الحاجة للإرشاد وتوقف الإسلام عليه - مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر - ج2 ، ص 27.

تطوير مقومات شخصيتها والإصلاح من حالها رغم افتقارها لدين الإسلام الذي يدعو للعلم والعمل لإصلاح المجتمع وهو التزام واقعي(1) ، والشيخ في مقالاته يتجنب ذكر المستعمر والسياسة الفرنسية صراحة لكنه يرمز إليها ، قاصدا من وراء ذلك الحفاظ على المشروع الإصلاحي بالتقدم ووصوله إلى كافة الشعب الجزائري.

حاولت هذه الدراسة كشف ملامح تجليات الالتزام في أدب الشيخ العربي التبسي من خلال مقالاته المنشورة على صحف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، فكان رحمه الله ملتزما بقضاياه الوطنية ، حاملا لواء العلم ، يسير على خطى ومنهج الجمعية التي أكب شيوخها على الحفاظ على مقومات الشعب الجزائري ، فكان الشيخ أحد أعلامها مكرسا الالتزام بواقع الأمة ومتعاملا معه في خطبه المنبرية ومقالاته التوجيهية ، فكان كثيرا ما يدعو إلى الوحدة الوطنية واتحاد الشعب حول كلمة واحدة ونبذ الفرقة ، كما حث الإمام التبسي الشباب على تعلم العربية والتحكم في ناصيتها والاعتصام بالدين الحنيف الذي هو النجاة ، ولم يشذ شيخنا عن الواقع السياسي بل كان في قلب الأحداث يتابعها وينقدها ويبدي فيها رأيه بحرية وشجاعة ، ويشدد على ممارسة فعل الإصلاح باعتباره العمل الذي يسمو بالأمم ويحميها من حملات التبشير والتنصير والسلب والغزو الثقافي ، لقد كان الشيخ التبسي مشروعا علميا ناضجا.

قائمة المراجع :

1 ـ ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر ، ط3 ، بيروت ، 2004.
2 ـ أحمد أبو حاقة ، الالتزام في الشعر والأدب ، دار العلم للملايين ، ط1 ، بيروت ، 1979
3 ـ أحمد طالب الإبراهيمي (جمع وتقديم) ، آثار البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1 ، بيروت ، 1997.
4 ـ بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، دار المريخ للنشر والتوزيع ، الرياض ، 1984.
5 ـ جان بول سارتر ، ما الأدب ، ترجمة : محمد غنيمي هلال ، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1990.
5 ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ، دار الجيل للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، 2003.
6 ـ سلمى الخضراء الجيوسي ، أبعاد الزمان والمكان عند الشابي ـ دراسات عن الشابي ـ الدار العربية للكتاب ط2 ، بيروت ، 1989.
7 ـ صالح خرفي ، الشعر الجزائري الحديث ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط2 ، الجزائر ، 1984.

(1) ينظر : محمد ناصر ، أبو اليقظان وجهاد الكلمة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1980 ، ص 25.

8 ـ عبد الكريم بوصفصاف ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقتها بالحركات الجزائرية الأخرى 1945- 1931 ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر ، 1996.
9 ـ العربي التبسي ، هذه جرائركم تحتضر أيها الجزائريون فأنقذوها ـ مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ـ ، جمع وتعليق أحمد شرفي الرفاعي ، دار الشهاب ، ط1 ، باتنة ، الجزائر ، 1984.
10 ـ علي مرحوم ، نظرة على تاريخ الصحافة العربية الوطنيةالجزائرية ، مجلة الثقافة ، العدد 42 ، ديسمبر ، 1978.
11 ـ محمد علي دبوز ، أعلام الإصلاح في الجزائر ، مطبعة البعث ، ط1 ، قسنطينة ، الجزائر ، 1974.
12 ـ محمد مصايف ، النقد العربي الحديث في المغرب العربي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط2 ، الجزائر ، 1984.